# ٣ نيسان ٢٠٠٠: حتى لا تتكرر

## هكذا كنا نعبر حاجز «البربارة»:

# الموت كان دائماً أمام أعيننا

عدد الحواجز في الحرب يفوق الإحصاء. ونادرا ما نتعرف إلى مَن نجا من حاجز عاقبه بإهانة أو سؤال عن هويته أو طائفته أو «تفضل معنا». إلا أن الحواجز مراتب. بعضها ثابت، وبعضها طيار، حيث كان الخطف «على العياني»، ثأرا أو تمهيدا لتبادل بين مخطوفين... وقد تفوّق بعض الحواجز في سمعته المخيفة، بحيث ان مجرد ذكره، كان يثير قصصا وحكايات مثيرة ومخيفة.

حاجز البربارة، الذي يفصل بين جبيل والبترون، حصل على درجة ممتازة في التخويف. فالعابر منه مولود من جديد. وعدد الحواجز التي لها سمعة «البربارة» لم يكن قليلاً، وإن كان هذا الأخير قد كان «الأشهر» في إثارة حالة الرعب والهلع.

فهناك حيث تلك البقعة الفاصلة بين محافظتي الشمال وجبل لبنان، نُصب ذاك الحاجز في منطقة البربارة، ليكون علامة فارقة عن باقي الحواجز التي نصبتها الميليشيات المتقاتلة آنذاك على مختلف الأراضي اللبنانية. وليشكل كابوسا مرعبا على مدار سبعة عشر عاما أرخى بظلاله السوداء على كثيرين من المواطنين الذين كانت تربطهم مصالح وأعمال أو دراسة في العاصمة بيروت: فمنهم من قُتل، ومنهم من خُطف، ومنهم من كان قدره المعاناة بشتى أنواعها، أو الخوف بمختلف عياراته، أو العذاب بشتى ألوانه وأساليبه.

كيلومتر واحد كان فيه الخوف والحذر سيدي الموقف، ومن قطعه بسلام هانت عليه الكيلومترات الثمانون التي تشكل طريق طرابلس ـ بيروت.

تمنيت لو أن الأرض انشقت وبلعتني، يقول جمال الحزوري (سائق تاكسي على طريق طرابلس ـ بيروت) وهو يستذكر أحد الحوادث التي حصلت معه في تلك الفترة.

يتذكر الحزوري فيقول: كنا ننقل يوميا العديد من المواطنين، أطباء ومهندسين وجامعيين وصحافيين، وكنا نخاف عليهم من تعرضهم للقتل أو للخطف، وكنا في بعض الأحيان نقطع مسافة ٢٢٦ كيلومترا على طريق الجبل، تنفيذا لرغبات بعض الركاب الذين كانوا يعتبرون مرورهم على حاجز البربارة هو نهاية حياتهم.

وفي إحدى المرات عام ١٩٧٥ كان معنا «طلب» الى جبيل فأوقفنا الحاجز، وقام عدد من عناصره باقتيادنا إلى مكان «شفنا فيه اللي ما بينشاف». حيث وراس بني آدم معلق على عمود خشبي، وأوقفونا على الحائط مرفوعي الأيدي وكادوا أن يطلقوا علينا الرصاص لولا ستر الله وتدخل أحد مسؤولي الحاجز الذي كانت تربطه صلة بأحد الركاب، ومنذ ذلك الوقت دب الشيب في رأسي. وفي إحدى المرات أيضا أخذ عناصر الحاجز هوياتنا وبقينا ننتظر من الساعة التاسعة صباحا حتى الرابعة بعد الظهر.

وخلال فترة الانتظار هذه شاهدنا العديد من الشبان الذين جرى اقتيادهم الى أماكن مجهولة ولم يعرف أحد مصيرهم، وفي هذه الأثناء تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبلعني لما عانيناه من ذل.

والآن والحمد لله بعد عودة الشرعية شعرنا بمدى التغيير أو الفرق بين الدولة الواحدة وبين الدويلات التي لم تنجب سوى الويلات.

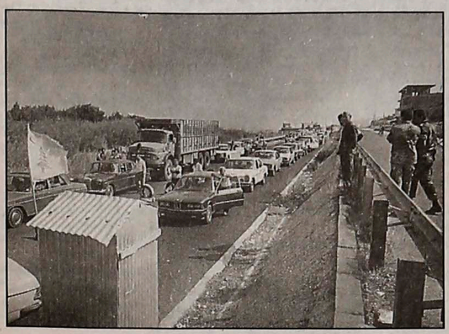

وقال السائق فؤاد الأسمر: ان حاجز البربارة كان يشكل قمة المعاناة بالنسبة لنا كسائقين: مشاكل، خوف، أسئلة، وتحقيقات قد تستمر في بعض الأحيان لساعات. وكنا حريصين على منع أي من الفلسطينيين أو السوريين أو الجزبين في ذلك الوقت من الصعود معنا على الطريق العادية خوفا من تعرضهم للقتل أو الخطف. وكنا في كل مرة نشعر بخوف شديد ورعب لما نشاهده ونسمعه من حوادث مختلفة، وكان أحدنا يخرج من منزله ولا يعرف إذا كان سيعود إليه مجددا...

جمال الحزوري

ابو محمود شحود

ويتذكر أبو علي، سائق تاكسي منذ ثلاثين عاما فيقول: «شوبدي اتذكر منك يا سفرجلة كل عضة بغصة»، الحرب كلها كانت ماساوية وقد عانينا على كل الحواجز ولكن في كل مشوار الى بيروت كان هناك حادثة أو قصة على حاجز البربارة. وأذكر مرة انه تم حجز أحد الركاب معي لأنه كان ينتمي إلى حزب يساري ومطلوب لدى «القوات اللبنانية»، وطلب مني عناصر الحاجز أن أذهب وأكمل طريقي باتجاه بيروت، فلم يطاوعني قلبي ان اتركه خصوصا أنني أعلم ما يمكن أن يكون مصيره، فقمت بعد الاتفاق مع باقي الركاب برصف السيارة على بعد مئتي متر من الحاجز، وعدت لإستوضح واطمئن عن أوضاع الراكب، ولا أذكر اسمه لكنه كان في العقد الثالث من العمر. ولدى استفساري تلت نصيبي من الإهانات واتهموني بانني متواطئ معه وأريد تهريبه، فاحتجزت في أحدى الغرف لأكثر من ساعتين ومن ثم أخرجت وطلبوا مني العودة إلى السيارة من دون أن التفت إلى الوراء، ففعلت حرصا على حياتي، ولدى وصولي الى السيارة كان بعض عناصر الحاجز قد أنزلوا الركاب، وبعد سيل من التحقيقات والأسئلة مع الجميع استمرت لأكثر من ساعة أطلق سراحنا جميعا، ومنذ ذلك الوقت أصبحت «صوفتي حمراء» على هذا الحاجز، فأثرت ترك خط طرابلس بيروت لنحو خمس سنوات ولم أعد إليه إلا بعد انتهاء الحرب.

وقال أبو محمود شحود: ان التوقيفات والانتظار لساعات والإهانات على حاجز البربارة كانت كلها أمورا طبيعية أمام ما كانت تتعرض له مدينة طرابلس من ذاك الحاجز الذي كان يرسل الهدايا، وهي عبارة عن سيارات مفخخة، حيث كان الحاجز يقوم بإلهاء صاحب السيارة أو الشاحنة بفنجان قهوة أو بتحقيق معين، ويصار الى تفخيخ سيارته المتوجهة الى طرابلس حيث كانت تنفجر وتحصد ما تطاله من بشر في مختلف المناطق.

وأضاف: أما المرور على ذاك الحاجز فكان مخاطرة كبيرة لأن التوقيفات والتصفيات كانت تخضع لمزاجية العنصر الذي كان يقف على الحاجز.

غسان ريفي